

أبناء السبيل

بقلم الأستاذ عبد الحميد إبراهيم صالح

لا أريد أن أسهب في وصف هذه البؤساء التي يعاينها أولئك المشردون في سبيل ، ولا استدر دموع القراء حزنا على حال أولئك المساكين ، المحرومين من مأوى ومن الطعام واللباس ، ومن حنان الآباء والأمهات ، المطاردين في الليل وفي النهار من رجال البوليس ، تعمل عصيهم في أبدانهم دون راحة ولا شفقة ، وقد نسوا أن أولئك الضعاف هم من أبناء الوطن ومن فدادت كبده ، وأنهم بهذه القسوة ينبور غواثر انشروا نفوسهم ، ويسوقونهم الى حياة كلها ضلال ، وكلها عث وإحرام .

لندع هذا الرثاء لحالم ، لنفكر في إصلاحهم وردهم الى البيئة الطيبة ، ومحاولة الانتفاع بهم ليكونوا أعضاء عامين في هذا المجموع المصري ، ولا يكونوا داء تستشري عدواه ويمتد الى سواهم أذاه .

وننظر في الاعتماد على قانون الأحداث ، وما يفرضه من عقوبات على المتشردين ، وليس أحدهم بالشدّة ولا حلاهم ولا زجهج و غياية أنسجن بعلاج لحالم ولا فيه إصلاح لنفوسهم أو عقولهم ، وما ينبغي لنا أن نعتمد على التفهق في كل شيء ، ولا سبيل أقوم من حسن توجيه المنوطين بتمهد أولئك الأحداث ، وتلقينهم (أي المنوطين) تعاليم رشيدة وخططا قومية لتربية وتهذيب ، وأولئك منوطون هم الذين يجب أن يعاقبهم القانون إذا قصرُوا في العناية بمن وعهدتهم من الأطفال ، أو حرموهم من الرعاية الواجبة .

ولنا أسوة حسنة في المهالك المتحضرة التي انتبعت الى تكاثر عدد المشردين وبتصالح خطرهم الى الحد الذي يضر بسمعة الدولة كلها ، فسنت القوانين المرشدة لأولياء أمرهم والمستواين عنهم ، أما من لا أهل هم فقد كفلتهم الحكومة ، وجعلت تأويلهم وتهذيبهم وتدريجهم على الصناعات والزراعات ، وعلى احدمة عسكرية أو غيرها من الأعمال النافعة .
وعلى أول الأمر ، أن نتعرف أسباب التشرد على ضوء التجارب والمشاهدات .

السبب الأول - وهو من السبب الثاني - الفقر وضيق أيادي العمل والارتفاق ، مع تزايد الدخل وارتداد مستوى الحياة لدرجة ومطالبها كل يوم ، وفي هذا الإجماع بما يفنى مؤقتا عن تفصيل أسباب الفقر فإن شرحه يطول . ولكن آثار الفقر ومضمره المؤلمة قد أصبحت من الكثرة والشوع بحيث لا نحى على أحد ، وللمفاجئ الذي يكبح ولا يطادف

إلا القليل من الرزق ، والساعي أو الخادم الذى يتقاضى قروشاً ويعول سبعة من الأطفال أو ثمانية ، ولا يعطى علاوات التماشى تزيد تبعاته ، ونمو مسئولياته ، والعاطل الذى تزوج ورزقه غير مكفول وحياته غير مستقرة ، كل أولئك وأمثلم ، ماذا يصنعون فى سبيل رعاية أطفالم ؟ وكيف يقومون بتطاللم من طعام ولباس وتعليم ، أداموا مكودين أو محرومين ؟ كثير من أولئك يلجأون إلى إرسال بنيلم وبناتلم خدما فى البيوت ، فإن لم يوفقوا تركوهم فى الطريق يلتمسون قوتلم بأنفسلم ، فهم بعد ذلك اما متسولون وإما مجرمون ، مادام لا بد لهم من طعام ، ولقد استعصى عليهم حللاً فما لهم لا يلتمسونه حراماً؟ وهم على الحالين لا ماوى لهم إلا فضاء الشارع أو ضيق السجن ، ولا خير فيهم لأنفسلم ولا للجمع . ولنصف إلى الفقر أسباب أخرى لتشرذم الأطفال ، أهمها الجهل ، ثم فوضى الزواج والطلاق .

فمن مظاهر الجهل أن يضلل الرجل بولده على الجيش فيقترض له البديل التقدى العسكرى وقد يبيع لهذا الغرض أذنت بيته وحلى امرأته ، ويستبقى ابنه الشاب ثم يزوجه فتصير الأسرة أمرتين ، وعدد الأطفال عديدين ، فلا بد من العجز عن إعالة نفر منهم ؛ ولا خاصم لهذا الفقر من التشرذم ، وما وراء التشرذم من فساد وإفساد .

ومن نكبات الجهل ، سوء التربية فى البيت ، بأن يقسو الآباء فى تأديب أبنائلم ويأخذوهم بالعصا تلهب أبدانلم ، أو بالعمل الشاق فى الحقل وغيره ، وأجساملم لا تزال غضة ضعيفة ، فيتبرم الولد بهذه الحياة المضنية البذيلة ، ويفر من البيت إلى الشارع التماساً للحرية وللرحمة ، باذلاً أقصى جهده لكيلا يعثر عليه أبواه ، وإذنا هو بعد ذلك الشريد الهائم على وجهه ، المستهدف لما وصفنا من ضياع وسوء حال .

ومن الجهل أيضاً ، الإسراف فى الرأفة بالطفل إلى حد التدليل ، والتدليل ينتج ما تنتجه القسوة ، فالطفل الذى يحجب إلى كل ما يطلب ، ولا يجد من أبويه حرماً وصرامة ، لا بد أن يرفض التعليم ويمتد على النصيحة ثم يسيئ الأدب فى حق أبويه وذويه ، ويختلط فى طفولته بفاسدى الأخلاق ممن هم أكبر سناً ، ويهرب فى سذاجته إلى تقليدلم حتى يستعصى على ذويه أن يحكموه أو يسوسوه ، وما أسهل انطلاقه بعد هذا إلى الشارع ، وكثيراً ما نرى أطفالا فى العاشرة أو الثانية عشرة ، يجلسون مجتمعين على أناريز الطرق وفى أفواهم لفائف التبغ وبين أيديهم أوراق اللعب يتشاحنون عليها ويختلفون ، مقلدين الكبار وهم لا يزالون صغارا ، متشبهين بالأغنياء وهم معدمون جائعون ، وألسنتلم خلال هذا وذلك تقذف أقدر الألفاظ وأدنس الشتائم ، وقد تخلصوا من رقابة المسئولين عنهم وألقوا مطاردة البوليس لهم ، وصار التشرذم مهنة محببة إليهم

وفوضى الزواج والطلاق ، لها شأن كبير في تكوين هذا الجيش من المشردين ، فان سهولة زواج اثنين وثلاث وأربع ، مع عدم القدرة على تكاليف هذه البيوت في أكثر الأحوال ، يترتب عليها كثرة الأولاد ثم العجز عن الانفاق عليهم ، فمن لم تتسع لإعانتهم أرزاق أبيهم كفيلهم الشارع وصاروا هائمين مشردين ، هذا عدا ما لا مفر منه من شقاق وبغضاء بين الإخوة غير الأشقاء خصوصا إذا ماتت عائلتهم وهم صغار، وكان ميراثه لا يسمح بصيانتهم جميعا ، أو طغى فريق من الورثة على الفريق الآخر ففكره فيها للوجوع وللضياع .

كما أن سهولة الطلاق تنتهي بكثير من الأولاد إلى التشرذم ، فهم إما أن يتركوا لرعاية أمهم المطلقة ، منهجورين من أبيهم وليس للام من السطوة أو القدرة ما يكفل للأولاد تربية منظمة وسيرا مستقيا ، وإما أن يزعوا من حضن أمهم ليكونوا تحت رحمة زوجة جديدة لأبيهم ، وامرأة الأب لا ترحم ولا تطابق أبناء زوجها خصوصا إذا كان لها أبناء آخرون ، ويضيع الأطفال بين أمهم وأبيهم ، وقد يكون مصيرهم إلى الشارع كما كان مصير من ذكرنا .



هذه أمثلة قليلة مما نرى على مسرح الحياة .

وإني أرى لعلاج هذه الحال ، اتباع البرنامج الآتي :

أولا - إقامة منشآت يجمع فيها البوليس هذا الجيش من المشردين والمتسكمين ليقوموا فيها بأى عمل ، نظير العناية بهم طعاما ولباسا وسكنا وتعلما ، ثم يبقون تحت الرقابة الحكومية حتى يثبت أنهم أصلحوا وصاروا قادرين على الكسب الشريف ، وإلا قضوا العمر كله على هذه الحال .

ثانيا - اتخاذ الإجراءات الآتية لكيلا يجد مشردون في المستقبل :

- (أ) عمل قوانين صارمة لمحاكمة آباء وأولياء الأطفال المهملين .
- (ب) عمل دعاية واسعة النطاق لحمل الشعب على تكوين عدد وافر من الجمعيات الخيرية ، ولحض الأمر ذات الكرم والنخوة على إيواء وتمهيد الأيتام والنقطاء . وفي الوقت نفسه يجب أن تمضى الحكومة في إنشاء الملاجئ وتستن في ذلك بضرية الزكاة التي اقترحها حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا .
- (ج) إنشاء عيادات سيكولوجية لفحص هؤلاء الأطفال سواء أكانوا بالملاحين أو في عهدة جهميات خيرية أو أسرة كريمة ، والمراد من هذا فحص حالة الطفل طيبا ونفسانيا ومعرفة حالة فساده ، وكذلك كشف ناحية النفع والاستعداد فيه ، كي تشجع ويوجه إليها .

ثالثا - بما أننا قد أوصينا الصرر الناشئ ، من سهولة لزواج بائنتين وثلاث وأربع ، ومن سهولة الطلاق أيضا ، وما أت لهاتين المسألتين حدودهما الشرعية التي لا أستطيع لنفسى الخوض فيها ، فكل ما أطمع فيه - من الناحية الاجتماعية - الإسراع بسن القوانين التي تنظم التعدد والطلاق ولا تيديهما إلا لضرورة ملجئة ، وبذلك نقل ما استطعنا عدد الأطنان الذين يجرمون بسبب التعدد والطلاق من عطف لأمومة ومن حسن الرعاية في ظل الوالدين المحتابين .

وكذلك أطمع في مرض ضريبة على كل عازب وعازبة ، والعمل على تخفيض المهور حتى لا يظل الزواج أسرا مرهقا محمولا ، وإذا عم الزواج قل البغاء وقل عدد اللقطاء .

رابعا - تعديل التشريع تعديلا يلزم المحاكم بأن تحكم بثبوت بنوة الطفل لأبيه ما دام قد ارتكب جريمة الزنا مع أمه ، وإلزام الأب بالتمية بهذا الابن غير الشرعى ، الذى لم يكن له ذنب في تقصده على هذه الحياء ، إذ لا يجوز أن يستمتع الناس بزراء شهواتهم ثم يتركوا ثمرة هذا الذرع صحية بريئة ، ويسبثوا إلى هذا الوليد المسكين وإلى المجتمع عامة ، ويدخل في هذا الدب تشديد العقوبات على مرتكبي جريمة الزنا رحلا ونساء ، وعدم ترك الحرية لروح الذى زنت زوجته أن يسمح بحكمتها أو لا يسمح .

خامسا - تعديل نرى الطفل و - المبدأ وفى المؤسسة الخيرية أو الحكومية أو بواسطة لأسر المحبة لعمل الخير - تعمل الحكومة على توجيه هؤلاء الأطفال ، كل إلى العمل الذى يتبع فيه ، والذى يلزمه أنه تخصص المسكولوجى من حالته .

وإلى نرى إقامة منشآت ومصانع ويرع عليها هؤلاء الأطفال ويظلون مدة معقولة تحت رعاية الحكومية حتى ينصحوا ويستصحبوا الاستقلال بجهودهم وتدريجاتهم بأنفسهم ، ويدخل في هذه الرعاية بث الأخلاق الناصحة والتعاليم الدينية ونفوسهم ليتجاوزوا المراحل الأولى من الحياة و ما من من صلال الطفولة وطيش الصغر .

٥٥

نحس - أولا وأخرا - و حاجة إلى عمل سريع لإصلاح شريدى اليوم ، ومنع التشرذم في المستقبل ، وبد كان حد الذى يتجرأه إجمالا فى وقت حكومة والهيئات الإصلاحية ، تسرع بتسريع وتنشيل .

عبد الحميد إبراهيم صالح